المحاضرة الثامنة :التاريخ ومفهوم القيمة

قيمة الفكرة المطلقة في بناء الحادثة التاريخية

تمهيد

تعتبر الوقائع التاريخية بالنسبة للفرد والجماعة عبر، فلا يعقل أن تستمر أمة من الأمم في التاريخ ، ما لم يكن لها تاريخ، وهذا ما يؤدي بنا إلى تقديس الفعل التاريخي، فالأمم والشعوب التي أضاعت تاريخها، محكوم عليها بالزوال لا محالة، وهذا ما يعطي الوقائع التاريخية قيمة بالنسبة للإنسان، لأنها تمثل جزءا من هويته، وعلى ضوء ذلك هل يمكن اعتبار الوقائع التاريخية ارث قيمي في الرصيد الثقافي والحضاري للإنسان؟

1 ـ مدلول القيمة

قيمة الشيء في اللغة العربية تعني قدره، وقيمة المتاع تعني ثمنه، لذلك قيل : قيمة المرء ما يحسنه. كما أن القيمة تطلق على كل ما جدير باهتمام المرء وعنايته، لاعتبارات مختلفة، قد تكون اقتصادية أو سيكولوجية أو اجتماعية أو أخلاقية أو جمالية. غير أن مفهوم القيمة من الناحية الذاتية يعني، الصفة التي تجعل ذلك الشيء مطلوبا ومرغوبا فيه، سواء كان عند شخص أو عند طائفة من الأشخاص.[1]

لقد ميّز آدم سميث بين القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية، فالقيمة الاستعمالية تدل على ما للشيء من نفع حقيقي، كالماء والهواء. أما القيمة التبادلية، فتدل على ما للشيء في مجتمع معين، أو زمان معين من ثمن اعتباري بين الناس، هذا الثمن لا يرجع إلى منفعة ذلك الشيء، بل يرجع إلى ندرته، أو ما للناس فيه من مآرب مختلفة.[2]

للقيمة عدة معاني منها القيمة في الفلسفة ، وتعد القيم جزءا من الأخلاق ، حيث يمكن تعريفها بأنها مفاهيم تختص بغايات يسعى إليها الفرد كغايات جديرة بالرغبة ، سواء كانت هذه الغايات تطلب لذاتها ، أو لغايات أبعد منها .

---

1 ـ جميل صليبا : **المعجم الفلسفي**، ج2، مرجع سابق، ص 212.

2 ـ المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

1 ـ في الاقتصاد تعني القيمة مقدار ما تضيفه السلع والخدمات إلى الأشياء .

2 ـ في علم النفس القيمة سيء هام في حياة الإنسان وهي التي توجه وترشد السلوك الإنساني .

3 ـ في علم الاجتماع تعتبر القيمة حقائق أساسية في البناء الاجتماعي .

4 ـ في الرياضيات تعتبر القيمة دالة رياضية

2 ـ قيمة الخبر التاريخي

أما في التاريخ فالقيمة بمعناها الفلسفي تعني عند ماركس أن التاريخ يخضع لقيمة التغير من الكم إلى الكيف ، حيث أن التغير الحاصل في الظواهر الطبيعية والإنسانية هو التغير من الكم إلى الكيف ويتم ذلك التغير طفرة ، إذ لا يعرف حد فاصل في تدرج المتغيرات عندما يستحيل الكيف إلى كيف آخر .. فالتغير التدريجي في الكمية لا يصاحبه تغير تدريجي في الكيف .

يعتبر ماركس أن التحول المفاجئ ليس في عالم الطبيعة فحسب ، ولكنه كذلك في عالم الإنسان، بل إن ظهور الإنسان نفسه طفرة ، أي أن هناك تحولا تدريجيا كيفيا في تطور الكائنات الحية الذي يبدو من الناحية الكمية تدريجيا وان هذا التغير المفاجئ أو الطفرة في تطور المجتمع هو ما نسميه باسم الثورة، فهي من ناحية حصيلة تغير كمي تدريجي ، ولكنها من ناحية أخرى تغير كيفي مفاجئ نحو الوضع الجديد ، حيث تختفي الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية القديمة ، لتبرز فجأة أوضاع جديدة . فقيمة التاريخ تكمن في التغير الحاصل في الواقع، وليس التغير الصوري، الذي لا أثر له في عالم المادة، لذلك يقول ماركس:« إن القيم الناشئة عن الأعمال هي القيم الحقيقية».[3] وهذا يدل على ما تطمح إليه الثورات من تغيير.

كما يخضع التاريخ لقانون أو لقيمة تداخل الأضداد وصراعها ، فليس في العالم جزئيات منعزلة قائمة بذاتها ، ولكن كل ظاهرة تشكل وحدة عضوية يكمن التناقض فيها، إذ هي لا تتغير بسبب علل خارجة عنها بل يكمن التناقض والصراع في أعماقها ، وذلك هو سر التطور ،

3 ـ جميل صليبا : **المعجم الفلسفي**، ج2، مرجع سابق، ص 214.

فالتناقض هو القوة المحركة للتاريخ الطبيعي والإنساني معا ، وإنكار ذلك يعني افتراض سكون الكائنات وموتها .[4]

هذا القانون في إطاره الصوري ، هو فكرة صراع الأضداد لدى هيجل ، ويصفه بأنه الروح التي تبعث الحياة في العالمين المادي والروحي على السواء . بالإضافة إلى قانون نفي النفي والذي يشتمل سير التطور في عالمي الإنسان والطبيعة ، فكل مرحلة تنفي المرحلة التي سبقتها ثم مرحلة ثالثة تنفيها معا وهكذا . وليس النفي فناء وإنما هو هدم وبناء ، تخريب وتجديد .

3 ـ النزعة المثالية ومسألة القيمة في التاريخ

تعتبر الفكرة المطلقة جوهر مذهب هيجل الفلسفي، حيث تعني الفكرة عنده، إله لا ديني، وهذا الإله ماهو إلا نمط من أنماط الروح الخالص، الذي يعد وجوده سابق عن وجود الكون، أي سابق عن الفكر البشري، حيث يعتبر علة وجود هذين العنصرين. وماهو معروف عند هيجل، أنه جرّد إلهه من كل المواصفات التي كان يتميز بها الإله التقليدي، المعروف عند اللاهوتيين، بحيث جرده من نوبات الغضب والحنان، ومن الإرادة والنسل، معتبرين إياه يولد كما يولد الآباء ويحب ويكره كما يفعل البشر. غير أن هيجل يتركا له الشيء الأساسي المتمثل في المعرفة، التي يراد بها عند هيجل العلم المطلق، أو المعرفة الكاملة.

لقد أعاب هيجل على اللاهوتيين قولهم بالأشكال والألوان، والحب والكراهية التي يقوم بها الإله، وهي صفات شبيهة بصفات الإنسان، على الرغم من قولهم أن الله يعلم كل شيء. لكنه يلد ويغضب ويجازي ويكافئ، لكن الفكرة عند هيجل هي علم صرف.[5] فيساءل ماركس عن كيفية وجود العلم قبل الإنسان، وقبل وجود العقل والأشياء المحيطة بالإنسان، فالفكرة موجودة قبل الإنسان، وقبل التاريخ وقبل الفكر والحضارة، وقبل تاريخ الكون، لقد كانت المعرفة غير واعية قبل وجود هذه الأشياء، حيث تكتسب بالتناقضات قدرتها على المعرفة، وذلك نتيجة اصطدامها بالعقبات والحواجز، فتخلق العالم بتناقضاته، مثل المادة والروح النسبي والمطلق ...وغيرها. بخلق هذه التناقضات تبدأ الفطرة المطلقة تعي ذاتها، وتظهر علة إثرها الأفكار الإنسانية والعقول،

4 ـ أحمد محمود صبحي: **في فلسفة التاريخ**، مرجع سابق، ص221.

5 ـ هنري لوفاقر: **كارل ماركس**، ترجمة: محمد عيتاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1954، ص 101.

لتضحى محرك للتاريخ، ومحرك للإنسان والحياة الاجتماعية والسياسية. لكنها تنحصر في الفكرة المطلقة، التي تفسر الكل الذي هو صورة خارجية للفكرة المطلقة.[6] هنا يبين هيجل قيمة الفكرة المطلقة، ومالها من دور في تفسير حركة التاريخ، وحركة العلاقات الإنسانية والاجتماعية والسياسية.

6 ـ المرجع نفسه ، ص 102.